النوافذ المغلقة !

ليست رسالتي هذه عن مشكلة شخصية لي وانما عن قصة إنسانية مؤلمة لم أعاصر بداياتها.. ولكني شهدت اثارها البشعة وتألمت لها.. فأنا طالب بإحدي الكليات العملية, وأمر كل يوم في طريقي من بيتي لركوب وسيلة المواصلات التي تحملني إلي كليتي علي منزل صغير قديم بحي عين شمس له حديقة ذات باب حديدي صديء تظهر من خلال فتحاته اطلال حديقة تمتليء بالأشجار وأصص الزهور والتكعيبات الخشبية التي تتسلق عليها النباتات المختلفة, ولقد لفت نظري من خلال مروري بهذا البيت يوما بعد يوم أن الحديقة رغم أشجارها وزهورها وتكعيباتها ميتة وأن أوراق الشجر والزهور قد جفت بسبب نقص الماء فيما تصورت, ثم شاهدت صاحبة هذا البيت أو المقيمة فيه فرأيتها سيدة نحيلة وهزيلة الجسم للغاية وشاحبة الوجه وتعبر قسماتها بغير كلام عن كل ماتعاني منه..
وأثارت هذه السيدة النحيلة وحديقتها الميتة فضولي فسألت عن قصتها وعرفت أنها تعيش في هذا المنزل وحيدة, وانها أرملة لمهندس زراعي كان يعاني من مشكلة في الإنجاب, فلم يرزقا بأطفال, وعوض هو افتقاد الأطفال في حياته بتركيز كل اهتمامه ووقته للعناية بهذا البيت وتجميله ورعاية الحديقة وزراعتها وتنسيقها, وكان بالرغم من ذلك بخيلا ومقترا علي زوجته فلا يعطيها أية نقود بالمرة, وانما يأتي هو بمتطلبات البيت أولا بأول ويحاسبها ويدقق معها بشدة في نفقات المعيشة, واستمرت حياتها معه علي هذا النحو لمدة12 عاما, ثم حدث أن صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق فتوفي علي الفور, وشيع إلي مثواه الأخير وبكته أرملته كثيرا.. وفقدت بفقده ـ رغم كل شيءـ الرفيق والشريك والسند الوحيد في الحياة, فلم تكد تمضي بضعة أيام علي وحدتها في هذا البيت, حتي كشف لها أخوة زوجها عن حقيقة مذهلة.. هي أنها ليست أرملة شقيقهم الراحل, وانما هي مطلقته.. وبالتالي فلا حق لها في شيء من ميراثه أو معاشه, أو في البقاء في البيت الخالي بعد وفاته!! وقدم لها الأخوة وثيقة طلاق تثبت طلاقه لها بالفعل قبل ثلاث سنوات من رحيله عن الحياة.. وصدمت السيدة صدمة مزلزلة.. وتساءلت مع أي رجل كانت تعيش وقد كان حتي وفاته يحيا معها حياة زوجية كاملة؟!
وبعد الصدمة المروعة والجرح النفسي الغائر, بدأت رحلة المعاناة للمطالبة بحقوقها عن طريق القضاء وطعنت بالتزوير في وثيقة الطلاق, فإذا بتقرير الخبير يثبت صحتها, وأسقط في يد الأرملة الحائرة.. ونتج عن إثبات صحة وثيقة الطلاق حرمانها من أية حقوق لها في الميراث عن زوجها وفي المعاش كذلك.. وأخذت المحكمة ـ تقديرا لظروفهاـ بشهادة جيرانها الذين تطوعوا للشهادة لصالحها وأكدوا جميعا أنها كانت حتي اليوم الأخير من حياة زوجها تعيش معه في بيته حياة زوجية طبيعية بلا مشاكل ولا أزمات, وانها لم تعرف أبدا ولم يعرف أحد من الجيران انه قد طلقها.. ولم يشر حالهما اطلاقا إلي أنهما مطلقان أو منفصلان, فقضت لها المحكمة رأفة بحالها بالبقاء في منزل الزوجية, وكفت أيدي أخوة الزوج عن التصرف في البيت طوال حياتها, ورفضت الدعوي التي أقامها عليها الأخوة لطردها منه.
وهكذا واجهت هذه السيدة الحياة بعد رحيل زوجها.. وهي تقيم في بيت لاتملك طوبة واحدة منه ولا حق لها عليه.. وبلا أي ميراث أو

معاش وبلا مدخرات ولا أقارب يتكفلون بها.. وعلي عكس مايفعله الزوج الطيب الذي يرحل عن الحياة فيترك لزوجته الذكريات الجميلة وما يقيم أودها ويقيها شر الحاجة, فلقد رحل هذا الزوج عن الحياة تاركا لها الإحساس المر بالدنس والعار, والحاجة, مما يجعلها كما علمت تلعنه في كل صلاة ومع كل أذان بدلا من أن تترحم عليه!
وشيئا فشيئا نفد كل ماكانت تملكه من مصاغ قليل باعته لكي تسد بثمنه رمقها, وانعكس حالها المؤلم علي حال الحديقة التي كانت زاهرة.. فتماثل الإثنان في المحنة وغدر الأيام بهما فهزل جسم السيدة, وجفت دماء الحياة فيها تدريجيا من أثر سوء التغذية, وذبلت أشجار الحديقة وجفت أوراق أصص الزهور وماتت النباتات المتسلقة لقلة الماء ونقص الرعاية, فلقد تراكمت علي هذه السيدة فواتير الماء والكهرباء, حتي انتهي الأمر بقطعهما عنها نهائيا منذ عدة سنوات, ومنذ ذلك الحين والسيدة تعيش في ظلام دامس وبدون قطرة ماء.. ووهنت قواها حتي لم تعد تقوي علي فتح نوافذ البيت كل فترة لتهويته, فيظل مغلق الأبواب والنوافذ دائما وكأنه مقبرة, وشكت السيدة من آلام مبرحة في قدميها حتي كادت تعجزها عن الحركة, ولقد يمر عليها اليوم واليومان والأيام الثلاثة دون أن تقوي علي فتح نوافذ بيتها, ناهيك عن أن تجد مايقيم أودها.. ولك أن تتخيل ياسيدي أن هذه السيدة رغم كل ماتعانيه, فإن ما أعطيه لها من ماء قليل كل فترة أو يعطيه لها جيرانها.. فإنها تستخدمه في النظافة والوضوء, ولا تشكو حالها لأحد سوي لربها, وفي كل مرة أذهب فيها إليها حاملا إليها بعض الماء أتعجب لاحتمالها لكل هذه الأهوال وبصبرها العظيم علي هذا الابتلاء حتي لأدير وجهي عنها لكيلا تري دمعي.. وأدعو الله العلي العظيم أن يرفع عنها هذا البلاء.. لقد كتبت إليك هذه الكلمات لعجزي عن أن أفعل لهذه السيدة المزيد وأرجو أن تصل هذه الكلمات إلي من بيده أن يرفع عنها بعض هذه المعاناة.. مع رجاء العلم بأن هذه السيدة تحتاج إلي من ينتقل إليها لبحث حالتها.. لأنها لاتقوي علي الخروج من شدة الهزال وضعف الصحة وانعدام العناية الطبية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

ولكاتب هذه الرسالة أقول

قد وصلت الرسالة بالفعل إلي مالك الملك ومن بيده ملكوت كل شيء سبحانه فجرت مشيئته عز شأنه بأن ترجع الكهرباء إلي المنزل المظلم المقبور.. والماء المقطوع إلي الحديقة العطشي والأشجار الجافة والأصص الخابية, وتنفتح نوافذ هذا البيت المغلقة ويتجدد هواؤه, وتسترد سيدته دماء الصحة والعافية بأمر ربها ومشيئته وهو الرحيم العليم, فلقد سمع الله جل في علاه نجوي هذه السيدة لربها وهيأك لنقل الرسالة إلي وأكرمنا بتسخير ««بريد الجمعة»» لإنفاذ مشيئته برعاية هذه السيدة الوحيدة والتكفل بأمرها, وتوفير الحياة الكريمة والرعاية الصحية اللازمة لها, ولسوف تزورك خلال ساعات الاخصائية الاجتماعية لبريد الجمعة لتصطحبها لزيارة هذه السيدة في بيتها وحل مشكلتها بما يحفظ عليها كرامتها ويقيها شر الحاجة ومذلة السؤال باذن الله.. فهي ممن عناهم الحق سبحانه وتعالي بقوله يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا273 البقرة.
وهؤلاء هم الأحق بالرعاية والعطاء, لأنهم عاجزون نفسيا عن سؤال الغير ولو كانت بهم خصاصة, ولقد تعتصر الحاجة أحدهم فلا يطيعه لسانه في الطلب, أو الشكوي لغير ربه, ولهذا أمرنا بأن نتحري

هؤلاء في مواقعهم وخلف أستارهم التي يستترون وراءها بعوزهم عن الغير وبأن نبادرهم بالعطاء بغير طلب ونترفق بهم ونشعرهم بحقهم علينا.. ونكفيهم مئونة السؤال, ونتحري حفظ كرامتهم والستر عليهم بما نقدمه لهم, ولولا أني قد أردت أن يشاركني قراء هذا الباب في قصة هذه السيدة ليستفيدوا بدروسها المؤلمة ويطلعوا علي وجه آخر من وجوه النفس البشرية الملغزة, لما نشرت رسالتك هذه ولبادرت بإرسال الاخصائية الاجتماعية إليك علي الفور بغير نشرها, لكن كيف كان لنا أن نعلم عن النفس البشرية وشحها وبخلها وحساباتها الدنيوية الحقيرة في بعض الأحيان ما علمناه من هذه القصة المحزنة لو كنت قد عزفت عن نشرها..

لقد تحيرت طويلا في فهم الأسباب التي تدعو رجلا يشارك زوجته الحياة تحت سقف واحد وترضي هي بحياتها معه رغم حرمانها من الانجاب, وبخله معها وتقتيره إليها, لأن يطلقها سرا ويتكتم عنها أمر هذا الطلاق فلا تعلم به في حينه, ثم يواصل حياته معها كزوجين يجمعهما فراش واحد, وحياة مشتركة, ويرضي هو لنفسه بهذا الوضع الآثم ويقبل بهذا الخفا علي زوجته متحملا عنها وزره الكامل لأنها لاتعرف به ويعلم به أيضا اخوته فلا ينهونه عنه, ولا يحثونه علي تصحيح وضعه الشائن ووضع هذه السيدة الضحية, ولا يبرئون ذمتهم من اثم المشاركة بالصمت في خداع هذه السيدة والقبول بالخنا لها ولأخيهم, ثم يرحل عن الحياة فجأة فاذا بهؤلاء الاخوة يشهرون في وجه أرملته وثيقة طلاق عمرها ثلاث سنوات ويسعون لطردها من بيت أخيهم وحرمانها من ميراثه ومعاشه, بغير أن يتوقف أحدهم ويسائل نفسه: كيف رضي بأن يعلم عن أخيه انه يعاشر من تحرم عليه معاشرتها بغير أن يبرئ ذمته من اثمه بنصحه أو علي الأقل بإعلام هذه السيدة بما علم به لتري رأيها في حياتها معه, ويبرأ هو من حقها عليه؟.. وأي شيء من متاع الحياة يستحق أن يشارك إنسان أخاه بالصمت الشائن علي مثل هذا الدنس الذي ينكره الشرع والدين والقانون؟.. لقد فكرت طويلا في دوافع هذا الرجل لما فعل, فلم أجد له تفسيرا سوي بخله الذي تمكن منه حتي صبغ نظرته إلي كل شيء في الحياة بالصبغة المادية الكريهة حتي ولو كان ذلك ـ غفر الله لهـ علي حساب الحق والعدل والفضائل الدينية والأخلاقية. فلقد كره الرجل أن تشاركه السيدة التي تقاسمه حياته في شيء من أملاكه أو معاشه أو ماله وهو علي قيد الحياة وبعد رحيله عنها, وكره أن تنازع اخوته بعد وفاته في ملكية البيت الذي يملكه ويبدو أن لإخوته نصيبا منه بالميراث عن الأب, فطلق زوجته وتحايل علي عدم ابلاغها بذلك, وتستر عليه في هذا الاثم الشائن اخوته طلبا لمتاع الدنيا الرخيص, وواصل حياته معها في الدنس والاثم مقدرا فيما يبدو أنه سيطول به العمر وقد يأتي الوقت الذي يراه هو مناسبا لإخراج هذه الزوجة من حياته بغير أن يتكبد دفع أية حقوق مادية لها لفوات المواعيد القانونية للمطالبة بنفقة المتعة والنفقة الشرعية ومؤخر الصداق, فيكتفي بوحدته في المنزل والحديقة اللذين يكرس فيهما كل اهتمامه.. أو لعله يستبدل بزوجته أخري أقل نفقة من سابقتها اذا رغب في ذلك, فاذا بمكره يخيب واذا بأقداره تسبق كل مكره وتدبيره ويرحل عن الحياة تاركا وراءه كل شيء للآخرين ومخلفا الزوجة التي عاشرها سنوات طوالا لاتدري أكانت أرملته أم مطلقته ولا تجد ماتواجه به الحياة, وتعاني مما تشعر به من احساس غائر بالاثم لغدره بها ومعاشرته لها بغير زواج لثلاث سنوات قبل الوفاة.. وكل ذلك لكي لاتنازع اخوته في حصة محدودة من بيت

صغير وحصة بائسة من معاش هزيل مهما بلغ قدره فأي اثم.. وأي مكر حقير؟!
يا إلهي.. انني لم أستطع حتي الآن برغم خبرة السنين أن أفهم هذا التناقض الغريب بين ضن رجل كهذا الرجل علي زوجته بأن ترث حقها المشروع في حاله بعد الرحيل مما يقطع بشحه وبخله الفاضح وعدم عدالته, وبين هذا الاحساس العائلي المفترض فيه أن يكون من الفضائل بشرط العدل والذي يدفع مثل هذا الرجل لإيثار اخوته بميراثه دون زوجته فهل يستطيع أحد أن يفسر لي هذا التناقض الغريب بين المنع للزوجة والإيثار للاخوة, وهما نقيضان تناقض المنع والعطاء ولا يجتمعان في النفس الشحيحة إلا نادرا؟.. أم تري أن هذا الرجل لم يكن يضع حتي اخوته في حساباته, وكان مطمئنا إلي الدنيا وإلي أنه سوف يعمر طويلا فينفرد فيها دون زوجته والجميع بماله وأملاكه إلي ما لانهاية؟!
فلندع اذن أمره لخالقه, ولنفكر معا في كيفية تعويض هذه السيدة المتعففة عما تعرضت له من عناء كاد يقضي عليها في وحدتها.. كما قضي من قبل علي أشجار حديقتها وزهورها ونباتاتها.. وشكرا علي رسالتك الكريمة هذه.. وأرجو الله أن يجزيك عنها خيرا كثيرا في حياتك ومستقبلك بإذن الله والسلام..